إعلامية النقد الأدبي علاقة الناقد بالسلطة وأنساقها الثقافية

د. حسين القاصد
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

أولا – سياحة تاريخية في إعلامية النقد

النقد في أحد أهدافه يعد إعلاما أدبيا ، فهو من بين مهامه أن يجيب عن سؤال مفاده : هذا النص جيد أم لا ، والجواب في كل الحالات سيعد خبرا دعائيا ، ويسبب الترويج للجيد ، والتحذير من غيره ؛ وهو بهذه الوظيفة شأنه شأن وسائل الاعلام ، بين أن يكون مستقلا ويعمل صادقا لوجه الأدب ، وبين أن يكون حكوميا أو حزبيا أو تجّسسيا في أخطر غاياته .

وحيث (أننا جميعا نعيش في مجتمع ما ، وننتمي كأفراد الى جنسية معينة لها لغتها وتقاليدها وظروفها التاريخية . فإلى أي مدى يمكن اعتبار المفكرين خدما لهذه الحقائق الواقعية ، والى أي حد يعتبرون أعداءً لها ؟ ويصدق هذا التساؤل على علاقة المفكرين بالمؤسسات ... وبالسلطات الدنيوية التي استقطبت طبقة المثقفين في زماننا الى درجة فذة ، وكأن من ثمار ذلك أن اصبح الكُتّاب ، كما يقول الشاعر ويلفريد أوين " يسوقون الناس جميعا ويصيحون بهم بالولاء للدولة")[1] ولا شك أن المفكر الذي يعنينا هنا هو الناقد الأدبي ، وأن الناس الذين يصيح بهم هم الادباء ، والنقد وفق هذا ، يكون وسيلة اعلام سلطوية موجهة .

وكي نسلط الضوء على اعلامية النقد ، لابد من سياحة في الموروث الادبي ، فقد جاءنا من هذا الموروث خبر مفاده أن علقمة فحل ، بعد أن نقلوا لنا تفاصيل حادثة تفضيل أم جندب علقمة على امرئ القيس ، ومن الموروث . أيضا . عرفنا أن قصيدة عمورية كأنت أشبه ببيان عسكري يعلن انتهاء المعركة بالنصر ويخلد تاريخها وابطالها ، ومن النقد جاءنا خبر الموازنة بين الآمدي والبحتري ، ومنه . عرفنا . أيام العرب عبر وسيلة إعلامهم الأسرع وهي الشعر ، فمنه عرفنا القادة والحروب والأحداث ، حتى دخل الشعر وظيفة المؤرخ وصار يؤرخ للوفيات ؛ ولأن الشعر بسطوته الإعلامية يمثل الصدارة

عند العرب يوم لم تكن لديهم صحافة أو قنوات فضائية ، صار النقد . الذي دائما يصل متأخرا . ينافس الشعر على علاقته بالسلطة السياسية ، حتى صار الناقد اقرب للسلطة من الشاعر أو الأديب بصورة عامة ، وصار له أن يرسم ويقنن الخارطة الإبداعية ، ويجعل توصيات السلطة السياسية قالبا ثابتا ، ويبدأ بالتنظير له ، ويشيد بمن يتبعه ، ويعدها معيارا إبداعيا مبيّتا النوايا وكامنا الغاية السياسية على الغاية الإنسانية للأدب .

وهذا ليس جديدا ، اذ لم يدخل العرب عالم النقد ويتوغلوا في دواخل النص واستنطاقه والوقوف عند دكة المغزى الذي يريده المؤلف إلا بأدوات دينية . وأحيانا تكون تعسفية . تحاول ليّ المعنى وتوجيهه لما يميل له هوى نفس القارئ /الناقد . اذا حُق لنا أن نسمي من قاموا بالتصدي للنص الادبي بلباس ديني نقادا !! لأن الغاية الأسمى والهدف الأنبل . من وجهة ميولهم . هو الاقتراب من المبتغى القرآني والإحاطة به ولو بقدر بسيط ، فاتحين بذلك باب التأويل والاستطراد والإفراط به على مصراعيه ، لاسيما بعد أن ادركتهم العجمة ، وسادت ملامح التفسير الاشتهائي للقران الكريم . إذا جازت لنا التسمية . لأنهم حين طرقوا باب النقد كأنت الصراعات بين الفرق والطوائف قد وصلت أوجها وكأن كل منها يريد القرآن له ، فالنقد لم يكن نقدا وقتذاك بل كأن محاولة للاقتراب من المعنى القرآني وكأن الأدب الذي سبق القرآن الكريم لم يكن أدبا ولا المعلقات كأنت معلقات !! .

وهذا . بحد ذاته . يدفعنا الى الشك في أن الناقد الديني قام بوأد كل المحاولات النقدية التي سبقت ظهور الإسلام مستعملا الدين سيفا لذبح التراث ، لأن الأمة التي أنجبت امرأ القيس هي ذاتها التي أنجبت أبا تمام والبحتري والمتنبي ، فلماذا نجد نقدا وسجالات واختلافات حول المتنبي وجيله ، بينما لا يحتفظ لنا التراث إلا بأقوال انفعالية عن فحولة هذا الشاعر وتفضيله على ذاك الشاعر ورواية مضحكة عن ريادة وهمية لامرأة اسمها ام جندب!! ؛ولاشك في أن هذا يعد محاولة فاشلة للمقارنة بين القرآن والشعر والأنتصار للقران ويتجلى فشل المحاولة في جعل القرآن نصا منافسا للشعر ، لذلك كأنت البداية . على ما أرى . بوأد النقد الأدبي في مهده ووأد الكثير من المنجزات الشعرية لنصل الى عصرٍ يفرض علينا أن نضع كلمة (الإمام) أو (الشيخ) قبل اسم الناقد الذي يحاول ملامسة النص الأدبي نقداً ؛ فهو في بداية الأمر انتصار لهذا الشيخ الناقد على أسلافه الموؤودين ثم بعد ذلك الانقضاض على المعنى القرآني . الذي هو الهدف الاسمى . وسحبه إلى ساحة ميول الناقد وفرقته

التي آمنت بعقله حتى اصبح الناقد المفسر كاتبا اخر للقرأن الكريم !!، مسخرا أمراء الكلام الذين قال عنهم الخليل بن احمد الفراهيدي: (الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا ، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم...)[2] لخدمة غايته ، حيث نجده يصرّف كلامهم أنى يشاء منطلقا من سلطة الناقد الفقيه .

ومثلما كأن اغلب الشعراء في العصر العباسي وقبله الأموي موظفين يعملون بأمر الخليفة ، فأن النقاد الذين دخلوا عالم البلاغة والنقد بثياب رجال الدين وهم موظفون اكثر ولاءً للسلطة ويتبرعون برفع شأن الشاعر على قدر اقترابه من المغزى السلطوي وذوق الخليفة ويحطون من شأن الشاعر اذا ابتعد من ذلك .

يعزو جابر عصفور بزوغ نجم الكاتب ، وارتفاع منزلته على منزلة الشاعر بعد انتهاء مرحلة الشفاهية ودخول العرب مرحلة التدوين ، يعزو ذلك ، الى مرام إيديولوجية ومبررات دينية [3] ومع أن جابر عصفور مال حيث مال الشيوخ اذ اتكأ على أدلة قرأنية ، ورصد الفعل (كتب) ومشتقاته في القرآن الكريم ، وجاء بها دليلا على علو مرتبة الكاتب على الشاعر ، الا أن تركيزه على المرامي الايدلوجية هو ماينفعنا في التركيز على استثمار النقد إعلاما سلطويا.

لكن ، من الغريب جدا ، أن نجد الناقد أو الاكاديمي المعاصر يرث كل ذلك لينتصر لطائفته في حنين لولائه السلفي ووفاء لاسلافه ، وقد لأنستبعد التركيز الواضح للغذامي على ابي الطيب وابي تمام وادونيس أن يكون امتدادا لسلطة الشيخ /الإمام / الناقد .

من كل هذا نجد الغذامي لا يختلف عن أي امام جامع أو خطيب متشدد ، كما في قول ابن بلدته : (ثم ظهرت كوكبة من ذوي الملل الأخرى ومن الطائفيين والشعوبيين من جماعة مواقف وحوار وشعر كيوسف الخال وأنسي الحاج وتوفيق صايغ وخالدة سعيد، ولكن اشرسهم زوج خالدة، وهو ادونيس، فقد كأن منظراً طائفياً شعوبياً جلداً: واسترحل الأدب الحديث لهدم كل الجذور، وتتأول بفكره التضليلي بالتقاطه ما في زوايا تراثنا من عمل الفساق والملحدين كابن الرأوندي وابن شبل البغدادي وابي العلاء المعري الباطني الذي أثر في طه حسين أيما تأثير وأبي نواس ورفاقه.. ومعظم هذه الهفوات في عتمات تراثنا يسقطها التوثيق التاريخي أو يسقط علنيتها: فجعلها ظاهرة عامة في مأثورنا، وهذا عمل الف ليلة وليلة تماماً تماماً، فكأن تاريخنا لهو وطرب وخمر مع الاسقاط للجماهير التي

وسع الله بها الرقعة، وأحيا بها قلوب العامة والسلاطين، وعصم الله بهم فصل الدين عن الدولة والحياة العامة، فهكذا كأن صنيعهم اسقاطاً للمتواتر المألوف من الايجابيات، وتضخيماً لما في الزوايا لكل عير نهاق، مع أن التوثيق التاريخي يسقط اكثره.. وقد افلحوا . خيب الله سعيهم . في سوق شباب الامة العربية الى العقائد الفاسدة، والتعلق بما هو مضيعة للعمر من فضول ثقافية ينبهرون بها)[4] ، هذا ماقاله الشيخ الظاهري ليحصر ابا العلاء المعري في زأوية الباطنية ، وهو الذي شكك في كل شيء ، وربما نعذره لأنه محكوم بالأنساق التي يرصدها الغذامي ، لكن ماذا عن الغذامي . وهو الذي قرأ المنجز العراقي اكثر من سواه . حين نجده يتفق مع هذا الشيخ فيقول : (جاءنا كتاب "الف ليلة وليلة" غفلا من دون اسم مدونه أو مدونيه لأن الذي دوّنه كأن يؤمن في المتعة الساذجة فحسب)[5] ،

وهنا يبدو أن نذكر الشيخ الغذامي (أنه لا ينبغي للتضامن أن يسبق النقد بحال من الأحوال ، فالمثقف دائما يتاح له الخيار الثاني)[6] لكن يبدو أن مشتركاً ما قد جمع الشيخين!! .

وترسيخا لاعلامية النقد يقول العلامة د. علي جواد الطاهر(لقد ولد النقد الادبي الحديث على صفحات الجرائد والمجلات ، وأن تكون من المقالات التي صارت نوعا يعرف بالمقالة النقدية ... النقد الأدبي ، إذاً ، عملية صحفية وليس عملية أكاديمية ، وأننا اذا اردنا . جادين . أن يسهم اساتذتنا في حركة النقد الأدبي ، وأن يبرز بينهم نقاد كأن على الصحافة أن تنظر الأمر من زأوية جديدة وأن تعمل على أن تستهويهم وأن تستعير من ترى فيه ضالتها من الجامعة وتحول وقتهم الجامعي وقتا نقديا)[7] ، ومن دون ادنى شك أن قول الدكتور الطاهر بصحفية النقد ، التي تؤدي اعلاميته بالنتيجة ، أن هذا القول هو لتشخيص اعلامية النقد الادبي بشكل عام ، حرا كأن ام سلطويا ، لأن له موقفا من سلطوية اعلامية النقد سنقف عنده ونناقشه .

ثانيا– نسق الامتثال والتوجيه السلطوي – الناقد الموجَّه موجِّها

اذا كأنت رياح السلطة واغراءاتها اخفقت يوما ما، ومنعت المتنبي من إدراك ما يتمناه ، فأن الناقد الإعلامي صاحب النسق الامتثالي بذل ما لم يبذله الشاعر الإعلامي كي يقترب من السلطة ويحظى بقربها المبلل بالمال والمغريات الحكومية .

فإذا كأن النظام الدكتاتوري قد عمد (على تكريس ثقافة العقل الامتثالي وقطع الطريق أمام تشكل ثقافة العقل المتسائل والمتمرد والرافض)[8] فأن أدوات توظيف العقل الامتثالي هم أدباء السلطة ومن بينهم نقاد الأدب الامتثاليون للسلطة ، لأنهم يتسيدون المشهد الثقافي ويضعون شعارات المهرجانات ، وموضوعات النقد في كل مهرجان ، كما أنهم يخصصون اعدادا خاصة من المجلات والصحف عن ملفات سياسية سواء كأنت عن المثقف العضوي والمثقف الثوري والأدب الملتزم ، وهي الملفات التي يعنى بها الحزب الشيوعي ، وأن اشترك معه بالعناية البعثيون من باب ادعاء الاشتراكية وما الى ذلك ، أو كأنت عن الادب القومية وادب المعركة وفكر البعث ، وهي الملفات التي كأنت تزدهر حيث ينجزها الامتثاليون لينشروا الفكر الامتثالي والطاعة العمياء، وبهذا تكون رياح السلطة قد جاءت بما تشتهي سفن العقل الامتثالي للناقد الادبي ، وتكون . ايضا . رياح امتثالية الناقد قد اتت بما تريده سفن السلطة وتشتهيه ، ويكون ماعز على المتنبي . مؤقتا . توافر للنقاد على الدوام .

لقد هيمن عدد غير قليل من الامتثاليين والمؤسسين للعقل الامتثالي ، وكأن من بينهم بعض التوفيقيين الذين ظنوا أنهم ينجون أو أن التاريخ يحترق ولا يحتفظ بالوثائق ، وصرنا نرى في افتتاحيات المجلات الثقافية العراقية ، مقالات اقرب للتقرير الحزبي منها الى النقد ؛ فقد صارت الحال تماما كما يقول احد الامتثاليين (أن حركتنا الادبية لا تنفصل عن الحركة العامة لثورة السابع عشر من تموز ... فالثورة التي هيأت المناخ وهيأت وتهيء الوسائل ، تنتظر أن نعبر بتفجير الطاقات الادبية وتنظيمها ، عن تفاعلنا معها وحضورنا النهائي فيها . وتلك هي حصيلة العلاقة الجدلية بين الجزء والكل)[9] فإذا علمنا أن صاحب هذا القول ناقد ، وأن المجلة كأنت تصدر عن اتحاد الأدباء والكتاب في العراق ، وأن الكلام كأن في افتتاحية المجلة وكاتبه هو سكرتير التحرير ، سوف لا نحتاج إلى دليل على أن هذا الكلام يتضمن توجيها حكوميا للأدب :

الحركة الأدبية ـــــــــــــــ عقل بحاجة الى الترويض كي يمتثل
الثورة ـــ السلطة ـــــــــــــ وجهة الامتثال
نعبر بتفجير الطاقات الادبية ـــــــ نبدع
تنظيمها ـــــــــــ توجيه سياسي
حضورنا النهائي فيها ـــــــ أمر حزبي = امتثال وطاعة عمياء

أن القارئ حين يقرأ الافتتاحية لن يتبادر الى ذهنه أي أن يجد رأيا حرا ، فما بعد الأمر الامتثالي هو طاعة عمياء تماما .

وليس بعيدا عن اتفاق الرياح واشتهاء السفن أن يمتثل ياسين النصير ويبتدع نوعا جديدا من البناء الفني وهو البناء الايديولوجي !![10] ، ولو كأن الناقد غير ممتثل لما ابتدع هذه البدعة ، ولا كتب بهذا الصدد ، ولو كأن غير راغب وغير خاضع لمعادلة السفن والرياح ، لما نشر في مجلة مقالها الافتتاحي يحمل عنوان (عن مستوى التعبير عن المعركة) وكاتبه رئيس التحرير طراد الكبيسي ، ولا شك أن تاريخ صدور المجلة يوضح أن الكتابة والنشر بعد انهيار الجبهة بين الشيوعيين والبعثيين ، فعن أي بناء ايديولوجي ، وكل ما في الأمر يدخل في البناء الموضوعي ، لا البناء الفني ، لكن الممتثل يقوم بليّ عنق المعنى لكي يوفر نسق الامتثال ويؤثث عقولا كثيرة من قرائه بالطاعة .

واذا كنا قد صدمنا ببدعة البناء الايديولوجي ، فما عسانا فاعلين حين نقرأ عنوانا لمقال نقدي : (الخطاب الأدبي في اللسان العربي : مقالة في "شكل الشكل" في "نص" الرئيس صدام حسين)[11] وهو النموذج الأنصع على نسق الامتثال .

يرى د.عارف الساعدي أن طراد الكبيسي في بداياته النقدية لم ير غير الرؤية الثورية الايديولوجية وما عداها هي رؤية رجعية وهو يربط اسماء الشعراء بالتوجهات التحررية بلغة ذات ابعاد ايدلوجية تقترب من الخطابات والاعلانات العامة والدعاية[12]، ولعلي أجلد القارئ الكريم بالمقتبس الآتي (فإذا ذهبنا مع ابن سينا في أن الشعر : هو كلام مخيل واذا خلا الكلام من الوزن والقافية ، فهو " قول شعري " ونص السيد الرئيس هو "قول شعري" باعتبار ما فيه من تخييل فهو قول اخرجت فيه اللغة على غير مخرج العادة كما ذهب ابن رشد في تعريف الشعر أي أن اللغة لم تستخدم هنا لتدل على

معناها الاصطلاح الظاهر لتدل بعد فحص النص ووضعه في سياقه من الموضوع والتاريخ والمجتمع على معنى اخر أي العدول عن الظاهر ووضع النص في درجة التماثل مع الشعر حيث يكون ، معنى المعنى ، في وضع ما يطلق عليه علماء اللغة المعاصرون بالعلاقة الاستبدالية في مقابل " معنى المعنى " الذي هو في علاقة سياقية ، اقول : اذن ، اذا أخذنا بنظر الاعتبار ما تقدم ، نخلص الى مايلي :

أولاً: أن نص صدام حسين بأي حال يمثل منظورا للواقع بكل ما ينطوي عليه الواقع من تفاعلات

ثانيا : أن التوظيف البلاغي فيه ليس موضوعا للإثارة ولكن للتأثير واستثارة اقصى ما يمكن من طاقات السامع أو القارئ الفكرية والتزوّقية للمشاركة في تعميق النص)[13] بعد هذا المقتبس على القارئ أن يسأل طراد الكبيسي ماذا ابقيت لنقد الشعر اذا كنت قد أنفقت كل اراء السلف النقدي ووظفتها لكي تقول لنا أن خطاب سيدك الرئيس كأن شعرا !!، لكن من باب الأنصاف علينا أن نوضح أن ما أصاب طراد الكبيسي وغيره ، انتقلت عدواه من المصريين الى العراقيين ، ومن الشيوعيين الى البعثيين ، وفي ما يخص المصريين ، لنا أن نقف على ما يشبه انشائيات طراد الكبيسي عند جابر عصفور إذ يقول في تناوله ديوان احمد حجازي : (هي بداية تمتد لسنوات طويلة هي سنوات اليقين في الحلم الناصري ، ومطلعها قصيدة "عبد الناصر" ...

فلتكتبوا يا شعراء أنني هنا

... وهي بداية تحمل من معاني العزة القومية ما يقترن بالمشاعر ... ويجعل من عبد الناصر زعيما قوميا بكل معنى الكلمة وزعيم انتصار حرب 1956)[14] ، أن هذا الاسراف في الهدر اللغوي يعد من اخطر اللوثات التي التاث بها الناقد الذي يدار بموجهات سلطوية ، وهو كلام لغرض الكلام غايته ارضاء السلطة وابتغاء وجهها ، وهو اتساخ ثقافي همّه كسب ودّ السلطة بتسويق افكارها وغاياتها ، حتى وصلنا الى مرحلة تشابه النقد علينا فيها؛ وليس بعيدا عن ذلك دراسة حاتم الصكر الموسومة(نخلتان .. نموذج مقارن من قصيدة الحرب المعاصرة)[15] فهو يفلسف لنا فروقاً بين قصيدة الحرب وقصيدة المعركة ، ويمارس التبذير اللغوي والعبث الفكري لكي يضع لنا دراسة مقارنة لقصيدتين

احداهما لمالك المطلبي والاخرى ليوسف الصائغ ، وهو بذلك يقدم الدعاية الاعلامية للقصيدتين كي يسوّقهما للجمهور بطريقة ترضي السلطة .

يقول حاتم الصكر : (أن عناصر الموضوع في قصيدة الحرب المعاصرة تتداخل بشكل عضوي يصعب فيه تحديد الأجزاء أو فصلها ، أنها تنصهر ولا تتحد ، لذا فهي لا تنفصل كي تفهم وفق معانيها المستقلة)[16] ، وهو كلام مغرٍ ينتمي الى "التزوّقية" التي اشار اليها طراد الكبيسي ، لكنه ليس اكثر رصف كلمات ، فهو يسهب ليترك القصيدتين ويتحدث لنا عن الحرب ، وكأنه يقول للسلطة أن النقد مقاتل أيضا ، ولا فضل للشعر على النقد في الحرب ، (كما غدا الإنسان العادي ؛ المواطن البسيط ؛ المأخوذ من أمن أيامه ، ووداعة ساعاتها ؛ بطلا في الحرب التي يمتد عمرها دون أن يصاب هو ؛ البسيط العادي ، بالملل أو الهزيمة)[17] ، وحسبي أن اقول أن هذا خبر سياسي يراد منه رفع المعنويات بتوجيه سلطوي ، وفيه من الاتساخ الثقافي الشيء الكثير.

ويبلغ التوجيه السلطوي واقتراح اشتراطات التوظيف السياسي ذروته عن الناقد باقر جاسم محمد ، فهو في دراسته الموسومة (الصورة الشعرية في شعر الحرب الغنائي)[18] يقترح الشكل العمودي شكلا رسميا لقصيدة الحرب ، وهو بذلك يسوّق فكرة الوضوح ويسعى لخدمة السلطة ، اذ يقول : (ولو قارنا بين انجازات الشعر العمودي ولنضرب مثالا بقصائد عبد الرزاق عبد الواحد ، لرأينا أنها حافلة بصور الحرب والقتال وهي صور ملحمية ناجحة ، ولعل هذه المقارنة تقترح نتيجة مفادها أن الشعر التقليدي ، وبحكم تقاليده الراسخة في مجال شعر الحرب وطبيعته كذلك كأن اكثر اقترابا من تصوير القتال)[19]

وكي نفرغ من هذا الامر ، لابد من أن نذكر أن اغلب الدراسات النقدية ذات الامتثال والاتساخ الثقافي ، كأنت تحتشد في ملفات تعدها مجلات السلطة ضمن حملات موجهة ، فنرى عددا من مجلة الأقلام فيه ملف خاص بـ (بيان البيانات) أو عددا عن (الادب القومي الاشتراكي)، ومثل هذا كنا نراه في مجلة الثقافة الجديدة وملفاتها عن الادب الاشتراكي والادب الملتزم والادب الثوري ؛ ولا شك أن هذه الملفات تعد المنبر السلطوي الذي تسوق فيه السلطة أفكارها للجمهور ، ويظهر الناقد فيها بدور يشبه دور مذيع التلفزيون الملقن ، فهو لا يحيد عن افكار السلطة بل يتبرع بتزيين الخبر الذي ينقله .

ومن التوجيات السياسية الشيوعية ، نقرأ في احد أعداد مجلة الثقافة الجديدة (في السياسة الثقافية) وهو عنوان بمثابة الوعاء الذي سيستوعب كل ما يريده الحزب الشيوعي لينقله الى القارئ (يعطي الحزب كذلك دورا كبيرا للغاية للنقد الفني ، سواء كأن في سير الابداع الفني ذي المضمون التربوي الرفيع الكفاحي ، أم في التربية الاخلاقية للجماهير الشعبية . أن شروط تحقيق مهم النقد الفني هو وضع هذا الفن موضع الفلسفة المادية التاريخية الديالكتيكية ، وروح النقد الموضوعي غير المنحاز في الحكم على القيم الفنية والتوجيه الصحيح الدائم للفن . وتشجيع الصلة الوثيقة بين المبدعين والحياة ، والحقائق الاجتماعية والاهتداء بالإنسانية الاشتراكية)[20] ، هكذا يريد الشيوعيون النقد ، وهذه هي اشتراطات النقد ومن اهمها أن يهتم بالأدب ذي المضمون الكفاحي والاشتراكي ، لذلك لا يشمل الترويج للأدب مالم يتضمن الكفاح والاشتراكية .

وتبلغ التوصيات السلطوية البعثية مبلغا خطيرا حين تأتي على لسان ناقد يشترط ويتحدث بأسلوب الآمر الموجه ، فيقول : (على النقد الادبي في العراق والوطن العربي أن يقوم الأن بمهمة ابداعية وليست مكتبية وارشيفية وخواطر انطباعية ... عليه أن يفرز الغث عن السمين : ينمي البذرات الطيبة ، ويعمق الوعي الايديولوجي والفني ، وأن يثبت مواقف ايجابية من بعض الاعمال الناجحة والكبيرة ...واذا ما نجح النقد الادبي في هذه المهمة فأن الكثير من الاعمال التي تتراوح بين التفاهة والسطحية العالية سيأخذ طريقه الى سلة المهملات ... وسيتحمل النقد الادبي عندئذ مسؤولية الحكم علنا وصراحة بالاعدام على كل ماهو رديء وساقط فنيا ، بعيدا عن الخوف والزلفى وبعيدا عن المقايضات المادية أو الاخوانية)[21] ، وهذا الكلام لأحد نقاد المؤسسة السلطوية ، اسمه مؤيد الطلال ، ولا شك أن الاعمال التي ستأخذ طريقها الى سلة المهملات أو الى ساحات الاعدام علنا . كما يريد الناقد . هي تلك التي لا تنطبق عليها معايير الجودة السلطوية التي حددها الناقد بعمق (الوعي الايديولوجي والفني) لذلك فأن الذي يختلف ايدلوجيا مع مؤيد الطلال وسلطته عليه انتظار مصيره هو ونصه الادبي.

محنة النقد الادبي بين الحرية والقيد السياسي

لعله من الغريب الذي صار مقبولا أن نرى قضايا سياسية تقترن وتوقّت لقضايا شعرية ،وقد نتفق على توافق الشعر مع الاحداث السياسية ذلك لأن الشعر اسرع الاجناس الادبية في التفاعل ، لكن أن تتم أدلجة النقد بالكامل وجعله ضمن توقيتات السياسية فهذا ما يجعل النقد اقرب الى محاضرات الثقافة القومية منه الى النقد الادبي ؛ فإذا عدنا الى ناقد المؤسسة مؤيد الطلال نجده يرسم فضيلة سياسية للنقد الادبي العراقي على سواه من النقد الادبي العربي وربما العالمي من حيث لا ندري ، والفضيلة تلك ، ليست علمية ولا فتحا نقديا ، بل هي التزام سياسي إيديولوجي سلطوي مقيت ، فهو يقول : (ولعل أهم ماحققه هذا التيار في الماضي القريب تصديه للتيارات السلبية التي نشأت في الأدب العراقي بعد احداث عام 1963 ونكسة حزيران)[22] وللقارئ الكريم أن يمتحن التاريخ والمناسبة السياسية وعلاقتها بالنقد ، اذ ربما تؤثر التواريخ والاحداث السياسية في المنجز الادبي لكن أن يأتي النقد موجّها ، فهذا أقرب للأمر الحكومي ، وهو ما يسميه مؤيد الطلال بفضيلة النقد الادبي في العراق !!.

والنقد الادبي نقدان ، وكلاهما إعلام ، أحدهما إعلام لوجه الابداع الادبي ، والاخر توجيه سلطوي لما تريده السلطة من الادب ، وبهذا يكون الدعم للأدب السلطوي ، والحرب على ضده.

فالناقد الذي رسم (فضيلة!!) النقد الادبي في العراق ، في المقتبس السابق ، أنما رسم طموحات حزبه وسلطته وجعلها فضيلة ، وجعل غيرها رذيلة ؛ ولا شك أن الفضيلة والرذيلة لا يتداخلان الا حين يدخلان معجم الخداع السياسي ؛ واذا كنا بصدد التوضيح الدقيق ، فالفضيلة للناقد الحر ، والرذيلة للناقد الحزبي ، أيّا كأن توجهه فهو خائن للنص ، وفيٌّ لمن أمره بالخيانة ، لذلك لابد من تفحص الآراء الخاصة بإعلامية النقد بين الادبية المحضة والسياسية المدفوعة الثمن .

ولا بد من وقفة عند نموذج الناقد الحر :

بعد أن التاث النقد بالأفكار السياسية واتسخ بالأوامر الحزبية نادى كبار النقاد العراقيين بحرية النقد ، وحرية الناقد ؛ إذ يرى الدكتور علي جواد الطاهر : (أننا بالطبع لا نريد له أن يكون صدى

للغرب ، ولكننا نؤمن بأنه لا يجد شخصيته قبل أن يعي اصول تجربة الغرب ، وقد عجزنا عن الحصول على هذه التجربة وعجز هو ، ثم استحال عجزه وهماً خلاصته أنه ادعى وعي هذه التجربة دون أن يسأل نفسه كيف ومتى) [23] وهي أولى قيود النقد ومحنه ، فلا هو بالحر المدرك الواعي المستقل ولا هو بالتابع المقلد ، وبين هذا وذاك ، يبقى الناقد اسير رغبته في أن يكون ناقدا وأسيرا للأوامر السياسية واشتراطات الاخوانية وادارات الصحف ، ويركز الدكتور الطاهر على أن اغلب النقاد لا يملكون ما يلزم من تجربتهم الآخرين والتجربة الخاصة بهم ويركز على أن اغلب النقاد يطلبون النقد وجاهةً ويأتونه من اسهل الطرق مكتفين بالرغبة الشخصية ، وينبّه الطاهر النقاد الى أن النقد سيطلب منهم الاخلاص والمثابرة والموهبة والذوق وفهم الابداع والاهتزاز للنص المبدع ، ويشك الدكتور الطاهر في الكثيرين ممن يملؤون الساحة على أنهم نقاد يملكون الاهتزاز للنص المبدع[24]، ولا شك أن الدكتور الطاهر يريد للناقد الوعي المتأهب لاقتحام النص فضلا عن تمتع الناقد بالشجاعة وعدم المجاملة ؛ وهذا ما نجده في تجربة الدكتور داود سلوم فهو لا يتردد من قول كلمة (تافه) حين لا يعجبه نص ، ولا يتردد من النهي عن الحزبية وما الى ذلك ، ومن بين آرائه : (والديوان على اتجاهه الديني الغالب عليه فأن اغلب قصائده شعر مناسبات تافهة ، وما نظم فيها من شعر تافه أيضا . وما رأينا أشد تقلبا في العقيدة ولعباً على الحبال من رجل الدين هذا ففي ديوانه حب لنوري السعيد الطاغية حبا يشبه العبادة على الرغم ما يُظهر جلال الحنفي من حب وخدمة للجمهوري ؛ كيف يوفق الشاعر بين حبه للجمهورية وقصيدته " في تحية التاج " مثلا ، والتي يقول فيها :

سيدي الملك والأماني التي في النفس ما أن يحدها إحصاء

وكيف يوفق بين الاخلاص للجمهورية المعادية للنظام البائد وتعزيته الى صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم)[25] وهذا الرأي في شاعر متديّن ، لا هو من اليسار ولا من القوميين ، لكن ربما نجد ما يسوغ للحنفي مدحه للجمهورية ، حيث وجود القوميين وبعدهم العربي المتصالح مع الدين .

لكنه لا يتوانى حين يجد شاعرا شيوعيا أو قوميا ، كأن دافعه الشعري سياسيا ، وغرضه رضا السلطة ، ويشخص ذلك معترضا بفسوة مفرطة ، وهو الأمر الذي افتقده النقد لاحقا ، وصار يطالب به وبحرية النقد كبار النقاد ، فالدكتور الطاهر يضع يده على جرح كرامة النقد معترضا على المتنفذين ، الذين يمررون أوامر السلطة ويجعلونها دساتير لما يجب أن يكتب في النقد ، فهو يرى :

(أننا في مجتمع ضيق ، يقوم الناقد فيه ويقعد مع الشاعر والقاص وكاتب المسرحية ، وهذا يحول دون أن يكون الناقد حرا في عمله ، ويهيء للشاعر أن يستغل اقصى حدود البراعة في الشعوذة ... هذا اذا لم يلمح . أو يصرح . للناقد بنفع معين ولم يلوح بخطر معين ، ومجتمع في هذا مجتمع .. يضر لغير سبب علمي وينفع لغير سبب علمي)[26]، لكن ناقدا مثل الدكتور داود سلوم ، لا تهمه العلاقات ولا يخضع للابتزازات والتهديد ، والدليل أنه لم يجامل أحدا بل كأن حادا قاسي الالفاظ ، مثل قوله واصفا شعر المدرستين القومية والاشتراكية بالانحدار: (أن ديوان كلمات مضيئة المطبوع في بغداد 1960 للشاعر الفريد سمعان هو رد فعل معاكس لصراع افكار هذه المدرسة السياسية مع المدارس السياسية الاخرى . فلا فن يمكن أن نحصل عليه من مثل هذا الديوان بقدر الحملة السياسية التي تستهدف الدفاع عن وجهة النظر الخاصة وأن الجودة الفنية والتعبير الصادق يكاد يختفي فعلا بين شعراء المدرستين . أن شعراء المدرستين يعتقدون . كما أرى . اعتقادا أعمى أن العقيدة في الادب هي أول شيء ، وبعدها يأتي الابداع والفن . وأن الاعتقاد بشيء من هذا هو في حد ذاته انحدار بالأدب الى هوة الموت)[27] ، هذا هو رأي داود سلوم بالشعر السياسي للمدرستين ، وهو رأي شجاع في زمن الاحتراب السياسي ، ولم يمل الى جهة على حساب غيره ، فهو يريد الشعر المحايد الذي ينطلق من هموم الشعب دون أوامر حزبية .

فاذا كأن الدكتور عناد غزوان يريد (نقدا حرا يقول كلمته بصدق ، بلا خوف أو تردد ، طالما كأن فهمه جديرا بمثل هذا الصدق ، وكأن موقفه نابعا من ايمان صاحبه بعمله النقدي ، وإلا يبقى كلمة ، مجرد كلمة ، ولكلمة عابرة لا تحرك ساكنا ، ولا تخلق قيما فنية جمالية جديدة[28]، وهي رغبة صادقة للحفاظ على هيبة الادب من المجاملة والاتساخ السياسي ، ولعل النموذج الاصدق لهذا الناقد الحر هو الدكتور داود سلوم ، فهو فضلا عن حرصه على موضوعية الرأي النقدي ، نلمس اعلامية النقد الصادقة ، فهو يشعر بالألم من تكاليف الكتاب وطبعه ويشعر بالمسؤولية اذا ارشد القارئ الى كتاب لا يستحق الثمن المدفوع لطباعته ، (اما كاظم جواد في ديوانه الضخم المطبوع في بيروت عام 1960 فهو يروي لنا "أغاني الحرية" احاديث قديمة ذهبت فزالت روعة وقيمة ما نظم فيه . فديوأه السياسي الإنساني يحوي تاريخا نظم شعرا عن احداث مرّت وأنقضت فتقرأها وأنت ضجر وأنت متبرم . مالنا وما لتلك الاحداث ؟ ألم يتغير الحال ؟ وكأنك تسأل نفسك وأنت تقرأ : يا ترى هل استرجعت ما دفعت من مبلغ ضخم في هذا الديوان الضخم ؟! ؛ أن هذا الحرص على أمانة الترويج الثقافي

دون الدخول في المنفعة السياسية ، هو هوية النقدي الادبي المستقل غير الخاضع لمؤثرات حزبية أو مؤثرات المتنفذين الذين آلت اليهم الامور فيما بعد لأن (النقد الصحيح لا يرضي مالكي الزمام ؛ فإذا اضفت الى ذلك أن بين مدعي الابداع من يستجدي الثناء ويستجدي الكذب على الحقيقة لم تعدم أن تجد بين مدعي النقد من يستجيب لهذا الاستجداء ويستعذب هذا النفاق وماذا عساه يخسر ؟ وخلاصة الخلاصة في هذا الامر أن مجتمعنا الادبي غير مهيأ لنقد أدبي سليم)[29] وكلام الدكتور الطاهر جاء في زمن الدكتاتورية وتفرد الحزب الواحد، لكنه لم يتردد في طرحه ضمن ملف اعدته مجلة الاقلام عن واقع النقد الادبي ؛ لكننا نلمس موقفا نقديا شجاعا لا يقل عن موقف الدكتور الطاهر ، عند الدكتور داود سلوم ، فهو بعد معاناته مع الشعر المؤدلج يوجه اصابع الاتهام للمؤسسة ويسميها باسمها ويقول :(ولعل اتحاد الادباء الذي يتجه اتجاها فكريا خاصا قد شجع امثال هؤلاء الادباء الذين يحملون الفكرة ولايجيدون عنها التعبير بالشكل الشعري الموسيقي فيضطرون الى استعمال الشكل المهلهل من النثر والجمل الموزونة ويحاول الاتحاد أن يدفع بمثل هؤلاء ويشجعهم لا على اساس جودة فنية وإنما على اساس عقيدة ونزعة لا غير. وفي هذا ولا شك اضرار بالمقاييس الفنية وانحدار بالجودة التي ندعو اليها)[30] ، وهو يضع يده . هنا . على التوجيه المؤسساتي للأدب ، فالاتحاد . هنا . يضحي بالجودة والابداع من اجل المغزى السياسي الذي يتبناه ويعتقده .

يريد الدكتور داود سلوم من الشعر أن يكون شعرا لا خطابا سياسيا ولا خبرا اعلاميا ينقل أو يؤرخ احداثا للسلطة ، وحين تتبع الأمر وجد اتحاد الادباء متورطا في الأمر الى حد ما ؛ ولأن (احدى طرائق الحفاظ على الاستقلال تتمثل في اتخاذ موقف الهواة لا المحترفين)[31] رأينا الدكتور داود سلوم يتجنب من امتهنتهم السلطات السياسية أو من مارسوا نسق الامتثال فاتبعوا خطى سلفهم .

ولم ينج من قسوة كلماته النقدية حتى الذي كتب في الغزل ، ومن هذا قوله (فهذه مجموعة من الدواوين أنصرف كتابها في الغالب الى معالجة موضوعات تخص نفوسهم وتخص هذا الكون وتتعامل مع العوطف الإنسانية من حب أو كره ، الا إنها تحاول أن تتجنب الاغراق في السياسية سواء أكان نحو الاتجاه القومي أو الاتجاه الاشتراكي . فمن هذه الدواوين كتاب " تغاريد الحياة " للسيد

محمد القريني ...أما غزله فضعيف تافه بارد وهذا نموذج منه :

أخذت قلبي وراحت

أنها نعم الفتاة

حبها في القلب باقٍ

لم يزل مدّ الحياة)[32]

وحين ندقق في هذا الرأي نجد أنه قال دواوين ثم ذكر (كتابها) وهو اعتراض مسبق على أن الذين ألفوا هذه الدواوين ، وهو يكرر هذا الاسلوب اللاذع حين يقول ومن هذه الدواوين كتاب .. ، وهي قسوة نقدية وصراحة صادمة امتاز بها الدكتور داود سلوم .

الهوامش

(1) المثقف والسلطة . إدوارد سعيد ، ترجمة : محمد عناني ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2006 26:

(2) منهاج البلغاء وسراج الادباء ,حازم القرطاجني تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة, دار الكتب الشرقية ,تونس , الطبعة الاولى 1966م :143-144

(3) غواية التراث ، جابر عصفور ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 2011 ط1: 139

(4) مجلة عكاظ / العدد : 2174 الخميس 1428/05/14هـ) 31/ مايو/2007 / حوار مع الشيخ ابو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري/ حاوره : سعيد الباحص

(5) المرأة واللغة .2. ثقافة الوهم "مقاربات حول المرأة والجسد واللغة ،المركز الثقافي العربي 2000 م: 9

(6) المثقف والسلطة : 72

(7) مجلة الأقلام – مجلة فكرية عامة تصدرها وزارة الاعلام _ بغداد ، العدد التاسع حزيران 1977 : 108

(8) إشكالية العلاقة بين الثقافي والسياسي ، المثقف العراقي شاهدا ، دار آراس للطباعة والنشر ، اربيل . العراق 2011 :326

(9) مجلة الأديب المعاصر – مجلة اتحاد الادباء في العراق، العدد التاسع (كانون الثاني) 1975 : 4

(10) مجلة الاقلام ، العدد السادس ، السنة السادسة عشر ، مارس . حزيران 1981 ، ينظر : المقال الافتتاحي بقلم رئيس التحرير ، ودراسة في رواية فؤاد التكرلي " الرجع البعيد " ياسين النصير : 139

(11) مجلة الأديب المعاصر ، العدد 35- 36 شباط 1988 : 4

(12) ينظر : لغة النقد الحديث في العراق من المقالية الى النسقية ، دار ومكتبة عدنان ، 2014: 111 - 113

(13) مجلة الاديب المعاصر ، مصدر سابق : 10

(14) في محبة الشعر ، جابر عصفور ، الدار المصرية اللبنانية ط1 2009: 154

(15) مجلة الأديب المعاصر ، مصدر سابق ، 72

(16) المرجع نفسه

(17) المرجع نفسه

(18) مجلة الأقلام العدد 8 ، 1989 : 5

(19) المرجع نفسه : 14\

(20) الثقافة الجديدة – مجلة فكر علمي تقدمية ، مطبعة الرواد ، بغداد، العدد 7/6 حزيران . تموز 1975 : 125

(21) مجلة الأقلام ، العدد التاسع 1977 : 102

(22) مجلة الأقلام ، العدد التاسع ، 1977 : 99

(23) المرجع نفسه : 107

(24) ينظر : نفسه

(25) الأدب المعاصر في العراق ، 1938 . 1960 ، مطبعة المعارف ، بغداد : 1962 : 198

(26) الاقلام مرجع سابق : 107

(27) الأدب المعاصر في العراق : 165

(28) الاقلام ، مصدر سابق : 105

(29) الاقلام ، مصدر سابق : 107

(30) الأدب المعاصر في العراق : 164

(31) المثقف والسلطة : 149

(32) الأدب المعاصر في العراق : 179. 180